رحلة مسكونيّة قصيرة!

هاري هاكوبيان

هاري هاكوبيان، دكتوراه في القانون، هو محامٍ دولي عام متخصص أيضًا في حل النزاعات البديلة ومفاوضات المسار الثاني. موقعه الإلكتروني هو www.epektasis.net وقناته على You-Tube هي https://www.youtube.com/@MyEpektasis3

(هذه ترجمة «تيلوس» للمقالة الأصليّة بالإنكليزيّة، وضعتها تيلوس بيد قرّاء اللغة العربيّة لأهميّتها. الكاتب مسؤول فقط عن النصّ الإنكليزي المرفق في هذا العدد)

مقدمة

منذ زمن طويل، قررت ترك وظيفة مرموقة وعالية المستوى في مكتب محاماة دولي للانضمام إلى مجلس الكنائس في الشرق الأوسط. استيقظت ببساطة صباحًا وقررت أنني لا أشعر بالإشباع (أو الرضا الوظيفي) الذي كنت أتوقعه من عملي في قضايا الملكيّة الفكرية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ومنطقة الخليج. أردت أن أجرب شيئًا مختلفًا تمامًا. هذا الشيء المختلف كلياً تحوّل في النهاية إلى الحركة المسكونية، ووجدت نفسي في مجلس الكنائس في الشرق الأوسط كمساعد لجبرائيل حبيب - الأمين العام الأيقونيّ لهذه المؤسّسة الإقليمية. لكن التحدّي لم يكن في التخلّي عن وظيفة قانونيّة مرموقة من أجل مرافقة الكنائس بشكل أكثر تواضعًا في رحلاتها المسكونية عبر مناطق الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ومنطقة الخليج. التحدّي الحقيقيّ كان في إقناع عائلتي بالفكرة هذه! أُقرّ بأنني كنت حرًّا وبلا قيود، وبالتالي كانت مسؤولياتي محدودة! ولكن كيف يمكنني أن أقنع أمي أو أبي بأنّني لم أعد أرغب في كسب الكثير من المال وبأن أكون محاميًا إقليميًا ناجحًا، وأنّي اخترت عوضًا عن ذلك أن أنضم إلى الحركة المسكونيّة؟

لم تكن المهمة سهلة، لكنّ والدي أدرك أنني جاد، ولذا تمكنت من الحصول على ما أريد وانتهى بي المطاف أن يكون مكتبي بجوار الأمين العام لمجلس كنائس الشرق الأوسط لبضع سنوات. هذه السنوات علّمتني الكثير: فقد علمّتني عن تنوع الكنائس والقضايا الايجابيّة التي تشتغل فيها، كما بيّنت لي طبيعة العيوب لبعض أوجهها السلبيّة.

ولكن ما هي الحركة المسكونيّة، قد يسألني القارئ؟ بكلماتي البسيطة، إنّها محاولة من الكنائس للعمل معًا من أجل السعي إلى وحدة تحقق رغبة يسوع (يوحنا ١٧ :٢١) وبالتالي تجعلهم أكثر قوة. ولكن دعني أكون أكثر أكاديميّة في المقاطع التالية، حيث إننا هنا لسنا في منصة للتواصل الاجتماعي، وإنما نتحدث في نشرة إلكترونية أكثر جدّية.

الحركة المسكونيّة العالمية

لكي نتحدث عن الوحدة والحركة المسكونيّة أو المكونات المرتبطة بها، يجب أن نعود إلى عام ١٩٠٢ حينما أصدر البطريرك يواكيم الثاني، البطريرك المسكونيّ للقسطنطينية، رسالة رسوليّة يطرح فيها مسألة العلاقات الداخلية بين المسيحيّين. وفي عام ١٩٢٠، أعقب ذلك برسالة رسولية أخرى بعنوان «إلى كنائس المسيح في كل مكان»، حيث شجّع أيضًا على روح المصالحة واستشهد برسالة القديس بطرس الأولى التي تحثّ على أن نحب ّبعضنا البعض بصدق (١ بطرس ١: ٢٢ب).

عند النظر إلى ألفي عام من المسيحية، يميل العديد من الناس إلى التركيز على ضعف الإيمان وتناقص الأعداد في الكنائس وزيادة الاحتكاكات بين الأديان. في مقال قرأته قبل بضع سنوات، شبّه الكاتب بين الأديان وبين ما ورد عن «صراع الحضارات» في كتاب لصمويل هنتنغتون. أنا لا أعتقد أن هذا التشبيه دقيق، وكذلك وعلى نفس المنوال لا يمكن مقارنة محتوى كتاب «أوروبا بدون كهنة» لِيان

كيركهوف بالإيمان المنتشر في جميع أنحاء العالم.

لنبدأ بالمكوّنات الأساسية. نتحدث هنا عن الإيمان المسيحي، ولكن ما هو هذا الإيمان في جوهره؟ ما هو تعريفه؟ برأيي، ليس كافٍ أن نناقش كلمة الله ونعلّق عليها. يجب أن نحملها أيضًا ونشهد بها في طريقة حياتنا. ليس هناك وصفة أو عصا سحرية! يجب على المسيحيين أن يتعلّموا أن يصبحوا مفسّرين موثوقين وتلامذة لمحبّة الله للبشرية. أعتقد أنّ في ذلك يكمن سر القدّيسة الأمّ تيريزا والأب ماكسيميليان كولبي والمطران ديزموند توتو الذين غيروا العالم من حولهم. بعبارة الكاردينال الراحل فرانتس كونيغ، المطران السابق لفيينّا، نحن بحاجة إلى تحويل الإيمان بالمحبّة وليس تضييعه في المؤسسات. وبحسب قول القديس يوحنا الذهبي الفم، بطريرك القسطنطينية ومعاصر القديس أوغسطينوس في القرن الخامس، المسيحيون مدعوّون أن «يشعّوا مثل النور في عالم من الظلام».

هل يمكن رفض هذه الاتجاهات للحركة المسكونيّة كمجرد شيء ملهم وبلا حماسة؟

صحيح، هناك العديد من العوائق التاريخية واللاهوتية والعقائدية والثقافية وحتى النفسية التي تعوق هذا التقارب وتعرقل الإعلان الموحّد للإنجيل للعالم. ومع ذلك، من العادل أن نضيف أن بعض الخطوات المتواضعة، ذات المغزى الملموس، والتي قد تم اتخاذها بالفعل في هذا الاتجاه. هناك شعور بالمصالحة داخل العالم المسيحي - ربما بسبب القناعة، ولكن أيضًا بسبب الضرورة والضعف - وهذا الشعور من الصعب إهماله أو تجاهله تمامًا على الرغم من التحديات التي تواجهه في كل زاوية!

لكي يسلك المسيحيون طريق العمل المشترك، يجب أن يكونوا متجذّرين في كلمة الله، وإظهار الله في وجه يسوع المسيح، وقوة تجديد روح الله، واكتشاف محبة الله الآب والابن والروح القدس. الإيمان والصلاة والعمل المشترك يمكن أن يجعلوا الماءَ ينبع حتى من صخرة العقم، ويطهّروا خطيئة الانقسام في المسيحية. إذاً، أين نحن الآن في هذا الطريق؟ هل يمكننا أن نعيش ونشهد معًا حول الاعتقاد الذي يقول بأنّ «يسوع المسيح هو نفسه أمس واليوم وإلى الأبد» (عبرانيين ١٣: ٨)؟

لا أرغب في أن أندفع بشكل مفرط بواسطة أفكاري أو كلماتي! ما زلت أعتقد أننا لسنا مستعدين بعد لتحمّل مسؤوليات الحركة المسكونيّة الأساسية بطريقة عمليّة. بشكل ما، ما زلت أعتبر أن شخصيّة الكنيسة العالمية اليوم تشبه إلى حد ما ثلاثيّة كنسيّة متعرّجة مطروحة في كتابات سيغموند فرويد: الأنا، والأنا الواعية، والأنا الأعلى! في الواقع، لا يزال هناك الكثير من النزاعات التي تحدث داخل العديد من الطوائف، وذلك على الرغم من انحسار مساحات النفوذ. يجب أن تتعلم الكنيسة كمؤسّسة - كجسد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح - كيفية إعادة بناء نفسها بمزيد من النزاهة، والشجاعة، والرؤية، والتواضع. يجب أن تتعلم أيضًا كيفية التواصل بصدق مع تجمع المؤمنين - تلك الكنيسة الواسعة خارج الجدران! يجب أن تتعلم رسالة الإنجيل بقدر ما تتلو كلماته. في هذا الصدد، أتذكّر كلمات الفيلولوجية جوان إمري في كتابها عام ١٩٩٨ حيث أكدت أن «المصلحة الذاتية، والانشغال الذاتي، والدلالة على الذات، وحبّ الذات، وأهمية الذات، وصورة الذات، هي «ذوات» كثيرة جدًا للكنيسة العالميّة لتحملها جميعًا في آن واحد».

بالفعل، هذه «الذوات» التي نفرضها على أنفسنا تُضعف رسالة الكنيسة النبويّة في جميع أنحاء العالم، وتقلّل من الخدمة المسيحيّة المتمثّلة في المحبّة والرحمة والمصالحة والمغفرة - الفضائل العظيمة التي يحتفل بها المسيحيون مرتين على الأقل في كل عام خلال عيديّ الميلاد والفصح. ما يساعد هنا هو حبّ الآخر، هذا الحبّ الذي يتجاوز الاختلافات العقائدية. وبالتالي، ما يلزمنا هو شركة مجتمعيّة مشابهة لتلك التي كانت في الكنيسة الأولى، والتي هي أكثر بساطة - وبالتالي أكثر أساسيّة - من الخلافات اللاهوتيّة، وذلك من أجل توجيه الحوار اللاهوتيّ المتواصل ذاته. أودّ في هذا الصدد أن أذكّر القرّاء

بعبارة القدّيس أوغسطينوس الشهيرة: « لن تهدأ قلوبنا حتّى تجد راحتَها فيك».

ماذا ينبغي للكنيسة أن تفعل بهذا التناقض بين تراجعها المؤسّسي، والغموض العقائدي، والوعي الروحي الناشئ؟ أعتقد أن التركيز الرئيس للكنيسة لا ينبغي أن يكون مجرد الجلوس معًا. ربّما يكون الأمر الأكثر جدية، وبالتأكيد الأكثر إلحاحًا، هو إدراكنا بأننا لسنا دائمًا متناغمين مع طرق التواصل التي يستخدمها الروح القدس للتواصل معنا. في النهاية، ربّما ينبغي لنا أن نتذكّر عبارات توماز أكيمبيس التالية التي قد تحمل أيضًا إجابة على وضعنا الحالي: «إنّ معرفة متواضعة لذاتك هي طريق أكثر تأكيدًا للوصول إلى الله من البحث العميق عن المعرفة».

ومع ذلك، من أجل أن نستمرّ في هذا القرن وفي الألفية القادمة بشعورنا المتزايد بالتواصل الذي يقترب من جوهر الحقيقة، يجب على الكنائس والحركات المسكونيّة على حدّ سواء إعادة اكتشاف الشعور بالرهبة الذي يميّزنا كمسيحيين. لقد أصرّ اللاهوتيين الأكثر بصيرة دائمًا على أن الله موجود خارج تصوراتنا العقائديّة. على مرّ القرون، أشار الصوفيّون إلى «سحابة اللامعرفة» التي يجب أن ننتظر فيها قبل أن نستطيع أن ندرك المقدّس. ربما يتعيّن على المسيحيين أن يتحملوا فترة من الانتظار الصبور قبل أن يتمكنوا من إعادة صياغة إحساسهم بالمقدّس، وأن يؤكّدوا الممارسة، التي الله مركزها، التي يقوم عليها إيماننا الكاثوليكيّ والرسوليّ المشترك. ربما يجب أن يكون هذا هدفنا بينما نسير قُدُمًا في قَرننا الجديد.

منظور أرمنيّ

تُعَدُّ الكنيسة الأرمنيّة واحدة من الكنائس الأرثوذكسيّة الأكثر مسكونيّةً في أسرة الكنائس الأرثوذكسيّة. ولهذا السبب، أود أن أشير هنا إلى كتاب بعنوان «بين السماء والأرض» لقداسة الكاثوليكوس كاريكين الأوّل صاحب الذكر الطيّب. نشأ الكتاب عن سلسلة من المحادثات التي أجراها هذا القائد في الكنيسة الأرثوذكسيّة الأرمنيّة في مدينة أتشميادزين المقدّسة في عام ١٩٩٨ مع المؤرّخ والباحث والكاتب الإيطاليّ جيوفاني غويتا. في كتابه هذا، ناقش كاريكين الأول إيمانه بصراحة.

ولكن هذا الإرث الأدبي الصادق ليس ما يميز الكاثوليكوس الراحل بالنسبة لي. فبالإضافة إلى كونه صديقًا عزيزًا أفتقده دوماً، كان أيضًا فكرًا مسكونيًّا مُشرقًا. أتذكّر بوضوح عندما قدّم ورقته في مدينة غراتس، النمسا، خلال المؤتمر الأوروبيّ المسكونيّ الثاني في يونيو ١٩٩٧. في بيان لا يُنسى، أكّد أنّ «الكاثوليكوس [قائد الكنيسة] هو خادم يجب أن يذهب ويكون بين الناس، كما فعل المسيح. لا يمكن للكنيسة أن تكون مؤسّسة راكدة. يجب أن تكون ديناميكيّة اليوم».

وشرح أيضًا العلاقة المعقّدة في كثير من الأحيان بين مجمع خلقيدونية (المجمع المسكونيّ الرابع الذي عُقد في عام ٤٥١ م. في تركيا الحديثة) والكنيسة الأرمنيّة الأرثوذكسيّة في وقت كانت فيه أرمينيا متورّطة في حرب مع قوات الفرس الساسانيّة. وقد تعرض الجيش الأرمنيّ بقيادة فارتان ماميغونيان للهزيمة في معركة آفارير. ونتيجة لذلك، لم تشارك الكنيسة الأرمنية في مجمع خلقيدونيّة، كما أنّها أيضاً لم تتحول إلى الزرادشتية.

وضع كاريكين الأول تحقيق الوحدة بين المسيحيين هدفًا له، وأدّى بيانه المشترك مع البابا القديس يوحنا بولس الثاني حول الكريستولوجيا [اللاهوت حول المسيح] إلى إلقاء نور من الوضوح على جدل قائم منذ قرون. وقال لي ذات مرة: «يعلّمنا التاريخ أن العديد من القرارات التي أُسيء فهمها في عصرها، اكتسبت معنى هام مع مرور الوقت». بالنسبة لي، هذا أيضًا واحد من أسرار الانفتاح على التعايش - الاستعداد المبتكر للذهاب أبعد، من أجل رؤية أوسع تعمّق حبّنا المخلص للمسيح.

الحركة المسكونيّة في الشرق الأوسط

باختصار، دعوني أقول أنّ منطقة الشرق الأوسط تتمثّل بأفضل شكلٍ من خلال مجلس كنائس الشرق الأوسط.

هـذه الحركـة المسـكونية الإقليميـة نشـأت مـن جـذور التبشـير، ولكـن المجلـس(MECC المعـروف عالميـاً بأسـم) تأسـس عـام ١٩٧٤ في الجمعيـة العامـة الأولى في قـبرص، بهـدف «تعميـق الزمالـة الروحيّـة بـين كنائـس الشرق الأوسـط وتوحيدهـا في القـول والفعـل». منـذ بدايتـه، اعتمـد مجلـس كنائـس الـشرق الأوسـط نمـوذج «عائـلات الكنائـس». في عـام ١٩٩٠، انضمّـت الكنائـس الكاثوليكيـة في المنطقـة رسـميًا إلى مجلـس كنائـس الـشرق الأوسـط وأصبحـت هـذه الحركـة تمثّـل معظـم المسـيحيّين الأصليّـين في هـذه المنطقـة بأكملهـا. ولكـن إذا نظـرت إلى الـشرق الأوسـط اليـوم، بعـد ٤٤ عامًـا، مـاذا أرى مـن خـلال تجربتـي الشـخصية في المنطقـة؟ لربّمـا أجـد علامـات الأمـل واليـأس متسـاوية. لـذا دعـوني أشـارك بعـض العلامـات مـع القـرّاء كمـواد للتفكير والسـعي لتجسـيد أهمّيتهـا لجماعـات المؤمنـين في المنطقـة.

١. أنـا مـدرك بشـكل حـادّ للحقيقـة المشـجّعة التـي تتمثـل في أنّ المسـيحيين الأصليّـين - العـرب بشـكل غالـب في هويتهـم العرقيـة، ولكـن أيضًـا الإيرانيّـين واليهـود والأرمـن واليونانيّـين والأقبـاط وغيرهـم - اسـتمرّوا في وجودهـم وشـهادتهم المرتكزتين عـلى الإيمـان في المنطقـة. بالطبـع، أشـار معظـم علـماء الاجتماع الموثـوق بهـم إلى أن عـدد المسـيحيّين انخفـض بشـكل كبـير عـلى مـدى العقـود القليلـة الماضيـة مـن أكـثر مـن ٢٥٪ إلى أقـل مـن ٥٪ في المنطقـة بأكملهـا. ومـع ذلـك، عـلى الرغـم مـن انخفـاض الأعـداد الـذي يثـير القلـق في بعـض البلـدان مثـل فلسـطين والعـراق (والآن سـوريا ولبنـان أيضًـا)، مـا يـزال المسـيحيّون حـاضرون بقـوة في الأراضي الكتابيّـة التـي ولـد فيهـا إيمانهـم منـذ أكـثر مـن ألفـي عـام. عـلاوة عـلى ذلـك، تسـتمرّ مؤسّسـاتهم، التـي تمثـل الترجمـة العمليّـة والتواصـل الخـارق لهـذا الانفتـاح المسـكوني - المستشـفيات والمـدارس ودور المسـنين والمسـتضعفين والجمعيـات الخيريـة ووكالات المسـاعدة الإنسـانية والمكتبات – تسـتمرّ في المسـاهمة بشـكل ضخـم في تلبيـة احتياجـات جميـع شـعوب المنطقـة.

٢. مـن الأهميـة أيضًـا أن نؤكـد أن المسـيحيّة المحلّيـة في المنطقـة ليسـت متجانسـة بشـكل قاطـع. صحيـح أنّ هنـاك بعـض المبـادئ الأساسـيّة التـي تُوحّـد معظـم الكنائـس المسـيحيّة، إلا أن هنـاك اختلافـات كبـيرة في المواقـف العامـة للمسـيحيّين مـن بلـد لآخـر. إنّ القلـق، وبالتـالي الأولويّـات والتوجّهـات، للمسـيحيّ اللبنـانيّ اليـوم ليسـت بالـضرورة مشـابهة لتلـك التـي للفلسـطينيّ، أو المـصريّ، أو العراقـيّ، أو للمسـيحيّين الآخريـن في المنطقـة. لذلـك، قـد يكـون مـن الممكـن رسـم بعـض الخطـوط العريضـة، ولكـن يجـب عـلى كلّ بلـد وكنيسـة ومجتمـع معالجـة طابعـه الخـاص - مخاوفـه واهتماماتـه وآمالـه واحتياجاتـه ورغباتـه الخاصـة.

٣. الهجـرة هـي أحـد الأمـور المشـتركة بـين جميـع الجماعـات المسـيحيّة. ظاهـرة الهجـرة، التـي تمّـت دراسـتها في العديـد من الأوراق البحثيّـة والمؤتمـرات، تعـود بشـكل كبـير – وإن غـير حـصريّ - إلى الظـروف الاجتماعيّـة والاقتصاديّـة أو السياسـيّة في المنطقـة، والتـي تؤثـر عـلى شـعوبها. المسـيحيّون، بفضـل شـعورهم بالزمالـة العالميّـة ومعارفهـم وشـبكاتهم، قـادرون عـلى الهجـرة إلى الغـرب (بشـكل رئيسـي إلى أمريـكا الشـمالية وأسـتراليا وأوروبـا) حيـث لديهـم العديـد مـن الأقـارب والأصدقـاء الذيـن يسـهّلون اندماجهـم في عـالم جديـد.

٤. ولكـن بصرف النظـر عن الظـروف الاجتماعيّـة والاقتصاديّة التـي تؤثـر عـلى المسـيحيّين والمسـلمين عـلى حـدّ سـواء في كثـير مـن الحـالات، فـإنّ هنـاك عوامـل أخـرى للهجـرة. فيـما يتعلـق بالمسـيحيين الفلسـطينيّين، عـلى سـبيل المثـال، فـإن القـوة الرئيسـيّة المحرّكـة للهجـرة هـي الاحتـلال الإسرائيـلي الغاشـم مـع سياسـاته المسـتوطِنة الاسـتعماريّة المتزايـدة، ناهيـك عـن سياسـات الفصـل العنـصري ضـد غـير اليهـود. أمّـا بالنسـبة للمسـيحيّين اللبنانيّـين، فـإن العامـل الأسـاس هـو إدراكهـم أنهـم فقـدوا تدريجيـاً سـيطرتهم السـابقة داخل المجتمـع التـي كانـت لهـم منـذ اتفاقيـة سـايكس بيكـو (ربمـا أيضـاً منـذ اتفاقيـة الطائـف المطبّقـة بشـكل غـير شـامل)،

ناهيك عن التوترات القائمة والمتزايدة داخل مجتمعاتهم الطائفيّة المختلفة. أمّا المسيحيون المصريّون فيواجهون مشكلات مع بعض المسلمين من جهة، ومشكلات مع الدولة من جهة أخرى، ويتعرّضون لعدم السماح لهم بممارسة دينهم بحرّية ودون تدخل دينيّ-سياسيّ رغم الترويج لحرّية مفترضة للعبادة في ظلّ النظام الحاليّ للرئاسة.

٥. ولكن هناك أيضًا قضايا تتعلق بالهوية. فالمسيحيّين المصريّين - في الغالب الأقباط - يواجهون في بعض الأحيان مشكلةً في تحديد هويّتهم فيما يتعلق بالبلد بأكمله، وشعورهم بأنهم «أبعد من كونهم عربًا». في الواقع، لدى بعض الأقباط المصريين (بصورة رئيسية ضمن الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة) نزعات فرعونيّة، تمامًا كما يحتفظ بعض المسيحيّين اللبنانيين بنزعات فينيقيّة. أما بالنسبة للعراق، فإنّ الانهيار الاجتماعيّ والاقتصاديّ يترافق مع اضطهاد مستفحل ضد الجماعات الأقلّ عددًا - بما في ذلك المسيحيّين - من قِبَل أتباعِ نمطٍ محدود، ولكن قويّ، من الإسلام المتشدّد المُسَيَّس والذي لا يؤمن بمفهوم التسامح أو قبول الجميع، ويحاول بدلاً من ذلك فرض خلافة إسلاميّة في المنطقة تستبعد جميع «المُشركين» المزعومين. يمكن للجميع أن يتذكّر اللحظات المظلمة والخائنة التي شهدها المسيحيّين والأزيديّين، كما وجماعات أخرى، تحت سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام [داعش] قبل سنوات قليلة فقط، سواء في الموصل أو في أماكن أخرى. ولم يتلاشَ الخوف تمامًا بعد.

٦. عندما نتحدث عن المسيحيّين، فإنّه من المفيد أن نقوم بالتمييز بين أولئك الذين يتحدّرون من المنطقة وأولئك الذين يعيشون في المنطقة، بين أولئك الذين يعود أصلهم إلى أرض الكتاب المقدس وأولئك الذين يأتون من الخارج كمبشّرين، أو عمّال، أو زوّار، أو سيّاح، أو أفراد. وعلى الرغم من أنه يجب أن نُظهر الضيافة المفتوحة للمجموعة الأخيرة، إلا أنه من الضروري التأكيد على أن الأمريكيّ الذي يأتي، على سبيل المثال، إلى الأردن لا يمكن أن يتوقع فرض آراءه على السكان المحليّين - سواء كانوا مسيحيّين أو مسلمين - ولكن ينبغي أن ينضم إليهم في زمالة مسيحيّة أوسع يحتل فيها المسيح المركز نفسه؛ زمالةٌ من المؤمنين الذين يعملون معًا، وليس استعمارًا دينيًا، أو طائفيًا، أو ماليًّا، أو سياسيّاً. ولهذا السبب، أعتقد أنّه من المفترض أن تكون دول الخليج - مع تزايد المجتمعات المسيحية المغتربة في جميع دول مجلس التعاون الخليجي الستّة - ممثّلة بشكل أكثر فعاليّة في حياة وشهادة الأنشطة المسكونيّة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. إنّ بناء ممالك صغيرة ذات طابع إبراهيمي، مع منازل وبرامج وشهادات وندوات، قد يكون أمرًا جيدًا كأداة سياسية للقوّة الناعمة، ولكن التحدّي الحقيقي يكمن في السماح لأعضاء هذه المجتمعات بممارسة دينهم بحرية.

٧. دعوني أضيف هنا أحد انزعاجاتي الخاصّة! يتعرض المسيحيين في بعض الأحيان لخطر أن يسمحوا لأنفسهم بالنزوع إلى عالم دينيّ سامّ قائم يغتذي من [شهوة] السلطة ويديمها. السلطة - سواء كانت ممارسة على الآخرين أو على العلمانيين - تصبح مشكوكًا فيها إذا كانت هي المنظور السائد الذي «نشهد» به لإيماننا. السلطة مفيدة؛ وهي مفيدة جدًا في بعض الأحيان، للحفاظ على سيادة القانون والنظام العام، ولكن معها تأتي أيضًا المسؤوليّات والوعي الدقيق بكيفيّة ممارستها، وبالوقت المناسب لممارستها. التأسف على فقدان السلطة في عالم علمانيّ يمكن فهمه تمامًا، ولكنّه يصبح ذو حدين عندما يُطبّق بدون محاسبة روحيّة، في إطار دينيّ فيه التمييز بين الأغنياء والفقراء.

٨. المسيحيّون في الشرق عانوا بشدّة عبر التاريخ من نتائج سعي المسيحيّة الغربيّة للسلطة. اليوم، نشهد سعيًا مماثلاً للسلطة السياسيّة من قبل بعض الجماعات اليهوديّة

والمسلمة، ناهيك عن بعض الجماعات المسيحيّة الإنجيليّة في الولايات المتحدة، التي تستبعد المسيحيّة الشرقيّة كونها غير ضروريّة أو بلا جدوى. لذا فإن من واجب الحركة المسكونيّة الابتعاد عن موضوع نقد مفكّري ما بعد الحداثة مثل جان فرانسوا ليوتار، جاك دريدا أو ميشيل فوكو، الذين يطرحون أن جميع الادّعاءات حول امتلاك الحقيقة، بما في ذلك الادّعاءات اللاهوتية، هي محاولات مبطّنة لطلب السلطة. بدلاً من ذلك النقد، ينبغي على الحركة المسكونيّة أن تؤكّد حقيقةً غير سياسيّة تقول بأنّ السلطة الحقيقيّة تكمن في الضعف، وأن الصليب يعطي قيمة للأخ والأخت الأضعف والأفقر اللذَين مات المسيح من أجلهما، كما يوضح القدّيس بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (١ كورنثوس ٨: ١١).

٩. أخيرًا، اسمحوا لي أن أنهي نقاطي الموجزة بسؤال لاهوتي يتحدّاني في كثير من الأحيان، سؤال يتناوله أناسٌ أمثال القس الدكتور متري الراهب والقس الدكتور نعيم عتيق. ما هي الأهمية الحقيقيّة للأرض بالنسبة للمسيحيّين؟ ما هي أهميّة الأرض في إيماننا، وما هو مدى تناغمها مع فهم الإيمان؟ كيف نميّز أنفسنا كمسيحيّين عن اليهودية والإسلام في تصوّرنا للأرض؟ ما هو معبدنا؟ وما هي النتائج التي ينجم عنها الإجابة على هذه الأسئلة عندما نستعرض صفحات الكتاب المقدس من العهد القديم إلى العهد الجديد؟

الكلمات البارزة في الحركة المسكونيّة

هل يُمكنني أن أقترح أربع كلمات بارزة واستخدمها كمُذكِّرات دائمة في توافقنا المسكونيّ؟ الأولى هي «ميتانويا» [التوبة] - إحساس بالتجديد والتغيير. الثانية هي «كوينونيا» [الجماعة]- تجمع المؤمنين في الشركة المقدسة. الثالثة هي «كايروس» [ملء الزمان] - فرصة في لحظة أزمة تترجم كعلامة أمل. والرابعة هي «دياكونيا» - الخدمة بين الآخرين في مجالات التعليم والإغاثة الإنسانية والرعاية الروحية. فهل يمكن للكنائس أن تساعد على سدّ الفجوة التي تفصل بين العمليّ والمحتمل، وذلك لكي نصل إلى الممكن في حياتنا الناقصة، كمسيحيين ساعين لتحديد وحدتنا؟ هل ستتبنى الجماعات المسيحية - القيادة والأفراد معًا - هذه الحركة وتجعلها خاصتها؟ هل «أُكومين» - أرضنا المسكونة – حقيقة، أم أنّنا نطرق الأبواب الخاطئة؟

أليس من الواجب على المسيحيين أن يعبّروا عن تحدّي وحدة جميع الذين يؤمنون بالمسيح، تلك الوحدة التي تصبح مرئيةً عندما يأخذ المسيحيون بالفعل على عاتقهم مهمّتهم في العالم الذي يعيشون فيه، عندما يواجهون معًا كل ما يُدمّر كرامة الإنسان، عندما مُصَلّينَ يعملون بشكل مشترك من أجل السلام الحقيقي؟ في رسائله وأوراقه من السجن، كتب اللاهوتي اللوثري الألماني ديتريش بونهوفر بروح النبوءة: «لقد تعلّمنا، وللأسف بعد فوات الأوان، أنّ العمل لا ينبع من الفكر، بل من استعدادٍ للمسؤولية». هل نحن مستعدون جماعيًا لتحمل هذه المسؤولية الثقيلة؟

خلاصة

تعلّمت الكثير من خبرتي في مجلس الكنائس في الشرق الأوسط - حيث عملت في قبرص ولبنان والعراق وفلسطين على مدى أكثر من عقد من الزمان. خلال هذه الفترة من حياتي، تعلّمت ليس فقط أن ثراء الكنيسة يكمن في تنوعّها لا في تشابهها، ولكن أيضًا أنّ الكنائس يجب أن تنظّم بيتها قبل أن تشارك في حوار مع المسلمين أو اليهود. وعند القيام ذلك، يجب على المسيحيين في جميع أنحاء العالم أن يتعلّموا تحرير كلمات الكتاب المقدس، وأن يتعلّموا أن يرفعوا رسالة العدالة التي تتخلّل صفحات العهد الجديد.

وتعلّمت أيضًا أن الكنيسة الشاملة تمثّل قوة ناعمة فاعلة طالما أنّها تمارس هذه القوّة بمسؤوليّة. في هذا الصدد، كان الراحل جبرائيل حبيب - مديري – مُعَلّمًا

جيّدًا، وساعدتني تجاربي الجمّة معه، ومع زملاء آخرين في الحركة المسكونيّة، في عملي السياسيّ اللاحق في منطقة الشرق الأوسط بأكملها - ولكن ربّما بشكل أكثر تحديدًا في الأراضي المقدسة، في فلسطين والأردن. بدون إرشاده، أشك في أنني كنت سأصل إلى العديد من المفاوضات السياسيّة الثنائية المسار، حيث أسهمتُ أيضًا بوجهة نظر حول السلام والعدالة وتسوية النزاعات البديلة، وقضايا الأمن، نيابةً عن الكنائس الثلاثة عشرة التقليديّة في القدس.

ولكن كختام لهذه الرحلة المسكونية القصيرة، دعوني أنهيها بسؤال مؤرق: هل أقتنع أبي وأمّي في النهاية بمغامرتي في الحركة المسكونيّة قبل بضعة عقود؟ أم أنّهما اعتبراها موضة غريبة قمت بها وتحمّلاها ببساطة كوالدَين مُحِبَّين؟ هل كانت علامات وجهيهما تشير إلى الموافقة أم إلى الاستغراب؟ قد تبدو أسئلتي سخيفة، ولكنّها أسئلة فلسفية سقراطيّة بعمق لأنّ الإجابة عليها تكشف عن ردودنا المسيحيّة الحقيقيّة الجماعيّة، على التحديّات الحقيقيّة للمسكونية، سواء على صعيد التطبيق أم على صعيد النظريّة. هل نحن مستعدون للمسؤوليّة ولأخذ العمل المسكونيّ على عاتقنا، للصراع معه وتفعيله، أم أنّنا نشعر بأنّ العمل المسكونيّ هو تذويب غير ضروري لإيماننا، وتشتّت عنه؟